مميزات الأدب الروسى *

بقلم الاستاذ محمد ثابت الفندى
ليسانسيه فى الفلسفة

فى قصة « الدخان » من قصص ترجنيف أتيحت فرصة لرجل روسى أن يبدى ملاحظة هامة عن طبائع الأمم المختلفة فقال: إذا تحدث رجل انجليزى فان حديثه، طال أم قصر، لابد منفض إلى الألعاب الرياضية ، وإذا تحدث رجل فرنسى فان حديثه، طال أم قصر، لابد منفض إلى النساء ، أما إذا تحدث إليك رجل روسى فان حديثه ، طال أم قصر، لابد منفض بك إلى تناول روسيا بكل ما فيها .

كذلك يريد أن يفهم الروسيون أنفسهم، وكذلك ينبغى أن نفهمهم أيضاً، فان الروسيين والحق يقال قد أوقفوا حياتهم لروسيا وحدها ، لا لأنفسهم ومايشتهون من ألعاب رياضية أو ألعاب نسائية، حتى أن روسيا صارت شغلهم الشاغل، وخاطرهم الذى لاينقضى ، وغريزتهم التى عنها يصدرون فى كل شىء .

وأنت إذا بحثت فيما يميز الأدب الروسى عن غيره من الآداب الأوربية أو الشرقية ، فانك لن تجد غير هذه الميزة التى أشار ترجنيف إليها ضمنا، ألا وهى: ميزة القومية أو الاجتماعية .

هو أدب قومى لأنه اهتم بشؤون أمة واحدة لا بشؤون الانسان على وجه العموم، اهتم بشئون الأمة الروسية ، ثم هو أدب اجتماعى لأنه لم يعن بالفرد من حيث هو فرد يحتاج إلى الرياضة والمرأة ، ولكن من حيث هو جزء من مجتمع واسع يتأثر بما تتأثر به الجماعة : يضحك لضحكها، ويعبس لعبوسها، وهذه الميزة التى أشرنا إليها هى التى جعلت الأدب الروسى فى مختلف عصوره أدباً واقعياً قريباً جداً من الحياة فى تلك البلاد .

وهذه الميزة عامة فى الشعر والنثر على السواء ، ثم هى نتيجة ضرورية لمنطق الحياة فى روسيا، إذ أن الحكومات الاستبدادية كانت تقتل كل نشاط سياسى فى مهده، حتى أن جنود الوطن وحزب التقدم كانوا لا يجدون تحت نير ذلك الحكم غير متنفس واحد يتنفسون منه إذا شاءوا أن يشتركوا فى بناء مجد الوطن، ذلك هو « الأدب » ولذلك فقد حلت الكتابات الأدبية محل الكتابات والحركات السياسية فى روسيا؛ والصراع الشديد الذى كان ينشأ بين المذاهب الأدبية المختلفة لم يكن فى جوهره إلا صراعاً بين مذاهب سياسية متعارضة ، وذلك أمر امتاز به

(*) مقدمة لمجموعة « أشهر قصص العالم » تحت الطبع .

الأدب الروسى دون غيره من الآداب الأوربية؛ فالمجتمع الروسى لم ينظر إلى الأدب كأداة للتسلية فوق المسارح أو فى أوقات الفراغ، كما ينظر غيره من المجتمعات الأوربية، ولكنه ينظر إليه كبرامج اجتماعية يقصد بها قبل كل شىء حل مشاكل الحياة كلها وخاصة السياسية، وهكذا كان الأدب مصباحاً يضىء طريق الحياة للناس فى روسيا.

الشعر فى روسيا

والشعر عامة وحتى الشعر الغنائى منه، الذى يأخذ بمجامع قلب الرجل الروسى ويطير بلبه ليس هو ذلك الشعر الرائق الجميل الانشاء، الحسن التركيب فى عبارته وفى معناه، ولا ذلك الشعر الذى يعبر عن المشاعر الباطنة للشاعر، ولكنه ذلك الشعر « الاجتماعى القومى » الذى يعبر عن الجماعة الروسية فى ألمها وأملها، وفى حقائقها الواقعية ومثلها العليا؛ فالشاعر الروسى فى الغالب شاعر اجتماعى يتحدث عن الجماعة وفى الجماعة وللجماعة، ولست أعرف بلداً من بلدان العالم كان الشعر فيه سلاحاً للاصلاح الاجتماعى والسياسى مثل الروسيا، فهناك بوشكين قيصر الشعر غير المتوج، كتب نشيداً طويلا (ODE) عن الحرية، حمل فيه على القياصرة المتوجين وطلب إليهم أن يطأطئوا الرؤوس أمام القانون الطبيعى، وأن يضعوا الحرية وحدها حارساً للعرش.

وهناك لرمنتوف الذى تزعم دولة الشعر بعد بوشكين، كتب شعراً من نار، طعن فيه على (الطغمة الفاسدة التى تحيط بعروش قصابى الحرية).

وشاعر آخر هو بيليف (PYLEEV) مجد فى (الافكار) الأبطال الذين ماتوا فى سبيل الحرية، وهؤلاء الأبطال هم الشعراء والكتاب، لأنهم كانوا القادة السياسيين.

ثم هناك أجاريوف (OGARIOV) المتأجج حماسة للثائرين والثورة التى هبت سنة ١٨٤٨، كان شعره كله سياسيا، حتى أن ناقدا وصف ديوانه بأنه ديوان سياسة لا شعر، ولد ومات وهو يلهج بذكر الحرية، حتى أن بعض أشعاره صارت أناشيد قومية، وذلك مثل المقطوعة التالية:

« عند ما كنت طفلا صغيراً،
وعند ما صرت يافعاً متأججا،
وعند ما جاوزت الكهولة،
وبالجملة دائماً ودائماً أبداً، مارن فى أذنى غير لفظ واحد،
رن فى أذنى لفظ واحد لم أسمع سواه،
الحرية! الحرية!»

هؤلاء هم شعراء النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهم فى الغالب لم يفهموا الحرية كما ينبغى أن تفهم، وكان تصورهم لها تصوراً غامضاً، إلا أن هذا التصور أخذ يتحدد ويتعين فيما

بعد، بفضل التجارب التى اكتسبتها روسيا، حتى أن الحرية فهمت على أنها اتحاد وتقدم على ضوء العلم، فقال بلشتشيف (PLECHTCHIEV)

« إلى الامام ياصحاب ! لاخوف ولا تردد ،
فان المخاطر والمصاعب تنتظرنا،
ألا إن يوم الغفران عنا،
قد أعلنه الله فى السموات.
تماسكوا بالأيدى ياصحاب ، وتقدموا بخطى جريئة إلى الأمام،
تحت سماء العلم والمعرفة،
يستطيع اتحادنا أن يزداد »

وهذه الأبيات صارت أنشودة وطنية فيما بعد، ينشدها الشباب والشيوخ فى الحفلات العامة والخاصة، وهى تمتاز، ولاشك، بتجدد معنى الحرية فيها.

وكما نشد الشاعر السالف الذكر الحرية تحت سماء العلم والمعرفة، نشدها مينايف MiNAEV فى التحرر من الاعتقادات الموروثة والعدول عن كل ماهو قديم ، نظم هذا الشاعر قطعاً تهكمية كثيرة تهكم فيها على الاعتقادات التقليدية، ونادى بمساواة المرأة بالرجل، فكان بذلك بطل المذهب « النسوى »FÈMINISME فى روسيا .

وعلى العموم فقد كان شعراء الأغانى فى ذلك العصر يتأثرون بما يحس به الشعب أكثر من تأثرهم بما يحسونه هم، فكانوا قبل كل شىء شعراء الجماعة الروسية، ويشارك الشاعرات فى ذلك الشعراء : فمثلا الشاعرة باريهوف BARYHOV الطائرة الصيت لم تنظم أغانيها عن الحب وحول الليالى المقمرة وفى الثلوج وقمم الجبال والأنهار، وإنما حول ذلك الشعب البائس الذى يفنى بعضه بالخمر ، وبعضه الآخر بالذل، أو بالفقر، أو بالجهل، أو بالمرض، وكانت فى شعرها تعنف « أولئك الشعراء الذين يتغنون بمشتهيات النفوس، ويحيلون عبقريتهم الشعرية إلى شىء يتسلى به »وذلك لأنها كانت تظن أن مهمة الشاعر الروسى هى الاحساس بحواس الجماعة .

وكانت السعادة الفردية عند شعراء ذلك الجيل شىء مهمل لاقيمة له إذا قيس بلذة النضال فى سبيل سعادة الجماعة ، ثم قال أحد شعراء ذلك العصر : « اترك أمك وأباك ، ولا تبن لك عشاً ... واقطع دابر العواطف الانسانية فى نفسك، واحتقر الحب والثروة والمجد ؛ كن قديساً، واستبق قلبك نظيفاً بين جنبيك؛ وأعطه بأكمله هبة منك إلى إخوتك البؤساء ، وحيث تسمع الأنين سر وتقدم؛ ابق فقيراً عارى القدمين؛ تكن عظيما ويخاف العالم منك ».

وفى هذه العبارات الحارة الحائرة لانجد ذلك الزهد الدينى فى العالم ، زهد المتصوفين والمتبتلين؛ وإنما نجد الزهد الثورى ، والتقشف السياسى الذى لابد منه للجندى فى ميدان

الجهاد الوطنى ؛ وكثير من شعر ذلك العصر هو من قبيل ذلك الشعر الثورى السياسى ، وهذه الأبيات التى كتبها الناقد الروسى DOBROLUBOV تصور لنا تماماً الحالة الفكرية لهؤلاء الشعراء:

« أى صاح! إنى أموت،
لماذا ؟ لأنى كنت أبداً نزيها شريفاً،
أموت وأنا موقن بأن الوطن لن ينسانى.
أى صاح! إنى أموت،
ولكننى مطمئن النفس جداً ،
إنى أباركك وآمل أنك ستتبع نفس طريقى »

ذاك شعر قصير الروح، سطحى بسيط ، فيه نزعة إلى النزاهة: وهى صورة من صور الزهد والامتناع عن الجشع، وتلك صفات تبين بسيكولوجية الشبيبة الروسية آنئذ، تلك البسيكولوجية التى تبعد جداً عن عقلية المفكرين الأوربيين المعقدة التى نراها فى أشعارهم .

وهذا الشعر الذى سماه بعض النقاد « الشعر المدنى » بلغ أوج كماله بكتابات NEKRASOV (١٨٢١—١٨٧٧)، وكتابات هذا الشاعر لا تلذ لجميع الناس، ولا تتذوقها جميع الأنفس بالتساوى، فحتى عند حافة قبره ، وبعد أن ووري التراب، مازال الناس يتناقشون بحرارة فى مسألة طالما تناقش الناس فيها أيام حياته، وتلك هى مسألة مواهبه الشعرية، فقد جرده البعض من كل شىء حتى اسم الشاعرية، فى حين أن آخرين عدوه أكبر أقطاب الشعر فى روسيا ؛ وسبب هذا الاختلاف هو تمسكه بالمذهب الواقعى المتطرف الذى صار فيه مضرب الأمثال . والحق أن « الواقعية » لا تليق بالشعر كما تليق بالقصص ، إلا أنها لائقة جداً لذلك الشعر الاجتماعى الذى اشتهرت به روسيا، وكل من شاء أن يعرف روسيا الحقيقية فى عهد العبودية والاستبداد، فعليه أن يرجع إلى هذا الشاعر ، فهو الذى يصور مدينة بطرسبرج بما تعج به من أرسطقراطية المال والادارة، وما يذوب فى أرضها الرطبة، وفى صقيعها المميت من دماء فقيرة جنباً إلى جنب ، ثم هو يصف لك فيها حياة الأدباء وأصحاب الأقلام وبؤسهم وعذابهم ، فاذا خرج بك من بطرسبرج ، فهو آخذك إلى الريف حيث تذوب الرجال كداً وكدحاً فى سبيل تحصيل كسيرة فى آخر النهار ، وهو فى كل هذا يفتش لك عن قلوب هؤلاء وهؤلاء ، من غير أن يشفق عليهم ، أو أن يتصور لهم مثلا علياً فى الفقر أو الثراء ، وذلك لأنه كما قلنا واقعى إلى أقصى حد .

ولهذا الشاعر أثر فى تبسيط لغة الشعر الروسية ، فكتاباته ميسورة القراءة لكل قارىء، ولقد لحنت بعض أشعاره وصارت من أغانى الشعب ، ثم له أثر من جهة أخرى ، فقد صارت كتاباته مدرسة يتعلم فيها الناشئون الروح الاجتماعية فى الشعر .

ولقد عد المجتمع الروسى آنئذ شعراءه « كمدرسين للحياة » إلا أن هؤلاء المدرسين دفعوا

عن تلك الدروس غالياً بدلا من أن يكتسبوا منها : فبشكين بعد أن طال نفيه قضى بقية حياته تحت المراقبة السرية ، ولرمنتوف كان ضابطاً ولكنه خفض فى رتبته، ثم أقصى عن موطنه بعد ذلك ، وريليف مات بالشنق شر ميتة ، وأجاريوف إضطر أن يهجر موطنه والأسى ملء فؤاده، والناقد TCHERNYCHEVSKY أبعد إلى سيبريا كما أبعد أيضاً دستويفسكي ويعقوبوفتش، أما تولستوى فقد عاش وأعين البوليس ترمقه، وأما جوركى فقد فضل أن يبعد نفسه عن روسيا حتى لاتبعده هى عنها .

هؤلاء هم ضحايا الأدب فى روسيا ، ولكن كم من الأدباء ممن هم أقل مكانة منهم انتهوا إلى أسوأ مما انتهى إليه هؤلاء ؟ بل كم من القراء — نعم من القراء — قد روقب وشرد وعذب أوأميت؟ وكم من الكتب صودر وأعدم الذلك نجد أن آلهة الشعر الروسى ـ كما قال ناقد حصيف ـ إنما هم « آلهة الانتقام والحزن» لا أكثر.

وبعد وفاة نكراسوف انقسم الشعراء إلى مدرستين : إحداها سارت على منهج المدرسة القديمة واحتفظت بالطابع الاجتماعى للشعر، وأهم زعماء هذه المدرسة هما: ZEMTCHUJNIKOV و YALSIBOVITCH ؛ ما المدرسة الثانية فقد كان شعارها الفن للفن ، فجددت بذلك الشعر الغنائى على طراز نادر المثيل ، وزعماء هذه المدرسة هم : TUTTCHEV و FÊTÉ و MAIKOV و ALEXIS TOLSTOI .

ولقد صار الأدب الروسى أيضاً كغيره من الآداب منبعاً للذة الشخصية الفردية بفضل هؤلاء الذين حملوا راية الفن للفن، حتى لقد أعلن بعض زعماء تلك المدرسة بصراحة مثل . . . APUKHTIN و MINSKY بأن عواطف الفرد على جانب من الأهمية فى الحياة أعظم من عواطف الجماعة ، ولا شك أن هذا انقلاب فى اتجاه الأدب الروسى الذى كان من قبل أدباً اجتماعياً .

ولقد شاهد مفتتح القرن العشرين فريقاً آخر من الشعراء تأثروا فى شعرهم بالمذهب الرومانتيكى، وخاصة بأشعار (شلى SHELLY) التى ترجمت إلى الروسية. وأهم زعماء هذه المدرسة BRUSSOV الذى تغنى بمحاسن العصور القديمة وآثارها وأفكارها ، ثم BLOCK الذى أحاط نفسه بأفكار غيبية صوفية، وأخذ يتطلع إلى اكتشاف « اللا معروف » أى الله .

والآن ما مكانة الشعر الروسى فى عالم الشعر؟ قال CHAMOT الناقد الانجليزى: إن لانجلترا شكسبيرها ، ولفرنسا هوجوها، ولألمانيا جويتها، أما روسيا فلا تنجب فى عالم الشعر واحداً مثل هؤلاء، فى حين أنها أنجبت فى عالم المنثور أعظم من كتب بالنثر فى العالم: تولستوى، ودستويفسكى.

فما شأن هذا الأدب المنثور ياترى ؟

ذلك ماسنتكلم عنه فى العدد المقبل ؟

محمد ثابت الفندى